

مقاصد القرآن الكريم في توزيع الأحداث التاريخية على السور تفكيك القصص من الوحدة الموضوعية إلى الوحدة العضوية

الأستاذ المشارك الدكتور عبد الرحمن حسين عبيد

كلية دراسات القرآن والسنة/جامعة العلوم الإسلامية الماليزية. drabrahman@usim.edu.my

ملخص البحث

قدم المفسرون وأساتذة علوم القرآن قديماً وحديثاً مقاصد قرآنية متنوعة لتوزيع القصة الواحدة - كقصة النبي موسى عليه السلام - على عدة سور، من مقاصد تربوية واجتماعية وسياسية وأخلاقية وعقائدية وغيرها، نافين وقوع التكرار والتهم الاستشراقية الملازمة لها، ومؤكدين سلامة النص القرآني من النقص والجمود وما يبعث السامة والملل، وكان من بين تلك المقاصد تثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة رضوان الله عليهم، والتسلسل في عرض العقائد وغرسها في النفوس، وبناء نظام أخلاقي متكامل بمرور الزمان، والتدرج في التشريع والأحكام؛ وهذه المقاصد لا تظهر إلا من خلال منهج الوحدة الموضوعية، يجمع شتات الموضوع والقصة الواحدة من القرآن كله وإعادة بناء الأربطة والجسور بينها. ولكن، وبعد أن استقر القرآن الكريم في صورته النهائية وبقيت أجزاء القصة الواحدة موزعة على عدة سور يتلوها المسلم في صلواته وأوراده، فما المقصد القرآني من بقاء تلك الجزئية في سورة بعينها؟ وما دورها الجديد في بناء الهيكل الفكري والعقائدي والأخلاقي لتلك السورة من خلال الروابط الخفية بين تلك الجزئية الصغيرة وبقيّة موضوعات السورة التي ظاهرها قد لا يمت بصلة إليها؟ لا شك أن القرآن الكريم قبل أن يوحى به إلى النبي عليه الصلاة والسلام كان في صورته التي بين أيدينا اليوم، وأنه بعد رحلة ثلاثة وعشرين عاماً من التقسيم والتجزئة عاد إلى هيئته الأولى التي ارتضاها الخالق له، فكان ما تفرق من المقاصد الأولى عن توزيع القصة الواحدة في عدة سور درياً إلى فهم مقاصد أخرى لتلك الأجزاء مجتمعة مع موضوعات أخرى لا تكتمل أحداث القصة بها، ولكن تتكامل الوحدة العضوية للسورة بها جميعاً، والسبيل إلى اتباع منهج إثبات الوحدة العضوية في السورة الواحدة لا الوحدة الموضوعية في القرآن كله انطلاقاً من جزئية القصة القرآنية وجعلها محوراً لباقي موضوعات السورة ومدخلاً إليها. وتم تقسيم الورقة إلى: مقدمة، ومبحث عن المقاصد القرآنية في توزيع القصة الواحدة على سور متعددة، ومبحث عن المقاصد القرآنية في تموضع حدث من أحداث القصة الواحدة في بنية السورة الواحدة، وخاتمة ومقترحات.

الكلمات المفتاحية: الوحدة العضوية. الوحدة الموضوعية. مقاصد القرآن. قصص القرآن. التكرار.

مقدمة

طعن المستشرقون ومن سار على دريهم في تماسك النص القرآني وزعموا أن القرآن يورث الملل والسامة لدى القراء، فالقصة الواحدة مبعثرة على عدة سور وبين المقطع والآخر عشرات المقاطع والسور فلا يخرج القارئ بحصيلة متكاملة عن قصة نبي من الأنبياء سوى النبي يوسف عليه السلام لأن قصته جاءت في سورة واحدة كاملة من بداية السورة إلى ختامها، أما قصة موسى عليه السلام فهي موزعة على السور المكية والمدنية، الطوال منها والقصار ولو أنها جمعت في موضع وسورة واحدة كما هو الحال في قصص التوراة لكان ذلك أدعى إلى متابعة التسلسل التاريخي للأحداث، وفهم سياقاتها بسهولة، وإذا أضفنا إلى ذلك غياب اسم الأماكن والأشخاص والملوك والفراعنة فإن التتبع التاريخي يغدو أصعب منالاً، ولا بد من الاستعانة بالتوراة أو كتب تاريخية أخرى لسد هذا (النقص التاريخي) وإكمال تفاصيل القصة الواحدة وهو جهد ضائع لا تبدو له قيمة إذا نظرنا إلى النص التوراتي الذي يجمع تفاصيل قصة كل نبي في موضع واحد ولا يعيدها في إصحاح آخر، بل ويتبعها بقصص الأنبياء الآخرين في تسلسل تاريخي واضح، فقصة النبي إبراهيم تأتي بعد قصة نوح عليه السلام، وقصى النبي لوط عليه السلام تأتي بعد قصة النبي إبراهيم، وهكذا تتسلسل قصص داوود وسليمان في حين أن القرآن يورد هذه القصص بلا تسلسل تاريخي ويوزع تفاصيل القصة الواحدة على مجموعة من السور دون وجود مبرر منطقي فيورث ذلك انقطاعاً موضوعياً.

وقد ينطلي هذا الزعم على العوام ومن لا علم لهم بمقاصد القرآن وغاياته البعيدة في توزيع القصص القرآنية على عدة سور، ولكن علماء التفسير من فترة مبكرة في التأليف في علوم القرآن ومباحثه انتبهوا إلى هذه المسألة، فوجهوا عنايتهم أولاً إلى معرفة المكي والمدني وأول وآخر ما نزل وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ حتى إذا اكتملت المباحث ظهرت التفاسير الجزأة ثم الكاملة، وعمد المفسرون إلى جمع الآيات المتعلقة بقصة نبي من الأنبياء والسعي إلى ترتيب أحداثها زمنياً مستعينين بحفظهم الكامل للقرآن في وقت لم تنصرف فيه الهمم إلى وضع المعاجم المفهرسة لموضوعات القرآن، واستطاعوا بقوة ذاكرتهم وإدراكهم العميق للمعاني إعادة ترتيب الأحداث زمنياً بعد جمعها من كل السور، وشكلت تلك الجهود الخطوة الأولى إلى التفسير الموضوعي الذي يجمع كل الآيات المتعلقة بموضوع واحد وإعادة تصنيفها وربط بعضها ببعض في تسلسل زمني ومنطقي بديع.

ووجدوا أن القرآن الكريم في توزيعه لأحداث القصة الواحدة على مجموعة سورة لا يكرر الأحداث والمواقف نفسها، بل يضيف حدثاً جديداً في كل سورة جديدة، أو يذكر تفصيلاً صغيراً جديداً للحدث نفسه، أو يزيد في الأقوال والمجادلات، أو يضيف شخصية جديدة إلى الأحداث المذكورة فتبدو القصة وكأنها جديدة تماماً، وليست تكراراً مملاً للأحداث نفسها كما زعم المستشرقون وأتباعهم، وفي المبحث الأول سنضرب أمثلة عن امتناع التكرار في القصص القرآنية، ودقة التفاصيل الجديدة وتناسبها مع موضوعات السورة.

المبحث الأول

المقاصد القرآنية في توزيع القصة الواحدة على سور متعددة

المقصد القرآني الأول من توزيع القصة الواحدة على مجموعة من السور هو تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم كما ذكر علماء علوم القرآن، فطبيعة المواجهة مع قريش في الفترة المكية على وجه الخصوص وما تعرض له النبي الكريم وصحابته من أذى جسدي ونفسي أجبرت العشرات منهم على الهجرة إلى الحبشة، استدعت نزول جبريل بالوحي لتقوية إيمان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يجد السكينة والطمأنينة مع نزول جبريل حتى أنه طلب من جبريل عليه السلام الإكثار من القدوم: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجِبْرِيلَ: «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟»، قَالَ: فَتَزُرُنَا: {وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا} [مريم: 64].¹

وهذا المقصد لا يلغي وجود المناسبة القرآنية بين الحدث القصصي وما يسبقه ويليه من آيات كريمة، وذلك وجه أعجازي فريد للقرآن الكريم، إذ نزلت بعض تفاصيل القصص القرآني في سياق تاريخي محدد لتثبيت قلب النبي وصحابته ثم كانت تلك التفاصيل ملتحمة مع بقية آيات السورة التي قد تكون نزلت قبلها أو بعدها، وهذا الالتحام في المعاني والتناسق في الألفاظ والوجه البلاغي يشكل وحدة فريدة لا تخطر في البال! ومثال ذلك ما جاء في سورة البقرة من قصة طالوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِنَا بِمِائَةٍ مِنْ مِائَةِ نَفْسٍ فَهِيَ أَكْبَرُ مِنْكُمْ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي وَلِيُّ الْمُنِئِمِينَ فَلَمَّا أَخْرَجْنَاهُم بِالنَّهْرِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمْسُقْ يَدَكَ أَلَّا تَكُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فَلَمَّا جَاءَ الْكَلْبُ قَالَ إِنَّ هَذَا نَجْسٌ فَأَلْبَسْتَهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْأَسَدِ فَأَلْبَسَهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْأَسَدِ فَلَمَّا جَاءَ الْكَلْبُ قَالَ إِنَّ هَذَا نَجْسٌ فَأَلْبَسْتَهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْأَسَدِ فَلَمَّا جَاءَ الْكَلْبُ قَالَ إِنَّ هَذَا نَجْسٌ فَأَلْبَسْتَهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْأَسَدِ... تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 246-253].

فهذه الآيات جاءت بعد آية تأمر بالقتال وأن الجهاد بالمال والنفس قرض حسن له ثواب عظيم، وتتجلى المناسبة في أن بني إسرائيل طالبوا بالقتال والجهاد ثم نكصوا على أعقابهم إلا قليلاً من القليل منهم ممن اتبع أوامر نبيهم بعد امتحان اجتياز النهر والاكتفاء بشربة من الماء! فكان النصر على يد القلة القليلة في مواجهة قوم متمرسين بالقتال يقاتلون على أرضهم وقد أكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى ارتووا ثم خسروا المواجهة مع قوم خائفين جائعين وعطشى! وتلى ذلك المقطع آية تأمر المؤمنين بالإنفاق قبل أن يأتي يوم لا حلة فيه ولا شفاعة، ثم تلتها أعظم آية في القرآن وهي آية الكرسي. فكان الأمر بالإنفاق مناسباً لقصة طالوت، حيث أحجم أكثر جيش

¹ البخاري، محمد بن إسماعيل. 1422 هـ. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. باب ذكر الملائكة. الحديث رقم: 3218. ج 9. ص 135.

طالوت عن اتباعه فرمما أنفقوا أموالهم ولكن أبوا أن ينفقوا أنفسهم في مواجهة مصيرية. ثمة نقطة مهمة في قصة طالوت وهي اعتراض قومه عليه لأنه كان قليل المال ولم يؤت سعة من الملك!

قال البقاعي في بحثه عن المناسبة: "ولما كانت النفقة التي هي من أعظم مقاصد السورة أوثق دعائم الجهاد وأقوى مصدق للإيمان ومحقق لمبايعة الملك الديان كرر الحث عليها على وجه أبلغ تشويقاً مما مضى فقال على هيئة الممتحن للصادق ممن أمره وحذره وأذره: {من ذا الذي} منكم يا من كتب عليهم القتال والخروج عن الأنفس والأموال {يقرض الله} الذي تفرد بالعظمة، وهو من الإقراض أي إيقاع القرض ولذا قال: {قرضاً} وشبه سبحانه وتعالى العمل به لما يرجى عليه من الثواب فهو كالقرض الذي هو بذل المال للرجوع بمثله، وعبر به لدلالته على المحبة لأنه لا يقرضك إلا محب، ولأن أجره أكثر من أجر الصدقة {حسناً} أي جامعاً لطيب النفس وإخلاص النية وزكاء المال".¹

ووجهة نظر البقاعي في تحديد أعظم مقاصد السورة وأن الإنفاق مقصد منها قول وجيه وله ما يدعمه من الأدلة الكثيرة في سورة البقرة، وإن كان لغيره وجهة نظر مختلفة. إذ تشكل سورة البقرة الدعامة الأولى والكبرى في القرآن الكريم بما تشغله من مساحة واسعة، وبسعة وأهمية المواضيع التي تُعرض في ثناياها، ولا عجب أن أولها القدامى والمحدثون أهمية كبرى في دراساتهم القرآنية، بل وجعلها بعضهم المحور الرئيس الذي تدور حوله بقية السور، والحشد الغفير من المواضيع المعروضة فيها، وخطورة بعض الأحكام فيها، والتلازم بين التصور العقدي وتنظيم المجتمع فيها دفع البعض إلى القول أن موضوعها هو "الإسلام" ذاته!²

ومن بين الذين أشرفوا من عل على تفسير سور القرآن، متأملين في آياتها وباحثين عن خيوط الربط بينها دون أن يتيهوا في شعاب السورة وأروقتها العلمية والاجتماعية والتشريعية والعقدية لا تجد مثل محمد رشيد رضا وسيد قطب في دقة النظر وحسن التأمل واستخلاص النتائج. وسنعمد على المحاور التي رآها سيد قطب، فمحورا سورة البقرة عند سيد قطب رحمه الله هما:

. موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة (التوحيد والتقوى).

. موقف الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل الخلافة في الأرض (طبيعة المنهج).

وفي المحور الأول تندرج قضايا توحيد الألوهية والربوبية، والإيمان بالرسالة والمرسلين، والإيمان بالبعث، وهي قضايا التوحيد الجوهرية، وحول هذا المحور تدور قضايا سورتي الأنعام والأعراف وجزء كبير من سورة آل عمران.

¹ البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت 885هـ). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي. ج.3. ص 402-403.

² انظر على سبيل المثال مقولة طهماز: "إن موضوع سورة البقرة الإسلام لله تعالى، بمعنى الاستسلام الكامل لأحكامه القدرية والشريعة والانقياد والإذعان لها". طهماز، عبد الحميد محمود، الإسلام لله تعالى في سورة البقرة (دمشق: دار القلم، ط1، 1414هـ/1993م)، ص 21. وهذه المقولة ليست سوى ترديد لما لوحظ عند محمد عبده وغيره.

وفي المحور الثاني تندرج قضايا كثيرة من قبيل أحكام النكاح والزواج والوصية والصيام والحج والقتال وصفة الأمة الوسط، وحول هذا المحور تدور قضايا سور: آل عمران والنساء والأنفال والتوبة.¹

والمقصد الثاني من توزيع القصة الواحدة على عدة سور يتعلق بالحكم المستخلصة من جزئيات القصة والمتفحة مع طبيعة الأحداث التاريخية التي شهدتها الصحابة الكرام ومعهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ويختلف هذا المقصد مع مقصد مواكبة الأحداث مع نزول القرآن منجماً على ثلاثة وعشرين عاماً، ففي هذه الحالة يتفق نزول سورة الأنفال على سبيل المثال في المدينة وبعد غزوة بدر مع أحداث غزوة بدر، وآل عمران مع أحداث غزوة أحد، أما اتفاق الحكم المستخلصة من القصة مع الأحداث التاريخية فهو دراسة معمقة في التفسير وليس مجرد الاتفاق في الخطوط العريضة بين السورة والأحداث. ومثال ذلك الآيات السابقة من سورة البقرة والتي تتحدث عن قصة طالوت والحنة التي مر بها مع بني إسرائيل المعاندين، ففي المدينة ظهر المنافقون وتآمروا على الرسول صلى الله عليه والصحابة حين غدر ابن أبي وجماعته بهم فعادوا بثلاث الجيش في غزوة أحد، فكان موقف النبي عليه الصلاة والسلام كموقف طالوت حين خذله أكثر جيشه، ولئن كان النصر حليف القلة القليلة من جيش طالوت والهزيمة من نصيب المسلمين في أحد فإن القصة تبث الأمل فيهم، وتحيي في قلوبهم هدف النصر وكسر شوكة العدو وهو ما حديث فيما بعد في غزوة الأحزاب بعد صبر مهول تلا خوفاً وجزعاً زلزل القلوب والأقدام!

المبحث الثاني

المقاصد القرآنية في تموضع حدث من أحداث القصة الواحدة في بنية السورة الواحدة

نعني بهذا المقصد الوحدة العضوية للسورة الواحدة، وبالتحديد الوحدة العضوية بين جزء من القصة القرآنية وبقية المقاطع في السورة، خاصة المقطع الذي يسبق القصة والمقطع الذي يليها. وتؤدي المناسبة بين الآيات دوراً محورياً في تحقيق هذه الوحدة العضوية، والأهم من المناسبة بين الآيات المناسبة في مقاصد المقاطع المستقلة، فكل مقطع يتناول بعض الأحكام أو العقائد ولها مقاصد محددة كما أن المقطع القصصي له مقصد ويتقاطع مع المقاصد الأخرى أو ينطبق معها تمام الانطباق فتتحقق الوحدة العضوية على أكمل وجه.

ومثال ذلك قصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ... فَعُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 67-73]، فقد جاءت هذه القصة في سورة البقرة فقط ولم تتكرر بعد ذلك، كما أن قصة السامري المشعوذ الكبير وصانع العجل الذهبي وردت في سورة طه ولم تتكرر بعد ذلك، وكلا القصتين جزء من قصة موسى عليه السلام مع قومه في فترات تاريخية مختلفة. وإذا جمعنا كل الأجزاء المتعلقة بقصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم فذلك بحث في الوحدة الموضوعية، أما إذا نظرنا في موقع كل جزء من السورة التي ورد فيها وعلاقته ببقية

¹ قطب، سيد. 1985م. في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق، ط11. ج1.

أجزاء السورة فذلك من الوحدة العضوية التي تظهر السورة كالعنصر الواحد، وتبحث عن محور شامل يتضمن معظم الموضوعات الصغيرة في السورة.

فأما من حيث مقصدها التاريخي فقد نزلت في المدينة المنورة أثناء إعداد جيل الصحابة لحمل الخلافة في الأرض، وهي تصور عقلية افتعال المشاكل بدل البحث عن الحلول، كما أنها تبين طبيعة التمرد الموجود عند الشعب اليهودي ومخالفتهم الدائمة لأوامر النبي موسى عليه السلام، وكثرة الأسئلة الصادرة عنهم والتي لا تريد جواباً بقدر ما تثير الفوضى وتجلب المتاعب، قال الإمام الطبري رحمه الله: "فلما تكلفوا جهلاً منهم ما تكلفوا من البحث عما كانوا قد كفوه من صفة البقرة التي أمروا بذبحها، تعنتاً منهم نبيهم موسى صلوات الله عليه، بعد الذي كانوا أظهروا له من سوء الظن به عاقبهم عز وجل بأن حصر ذبح ما كان أمرهم بذبحه"¹. فكان حقاً على الجيل القرآني الجديد في المدينة أن يتعد عن كثرة الأسئلة غير المفيدة والتي قد تؤدي إلى فرض بعض الأحكام الثقيلة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: 101]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ذُرُونِي مَا تَرَكَتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤْلِهِمْ وَاحْتِلَافِهِمْ عَلَيَّ أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»²؛ وكان حقاً على جيل الصحابة أن يلتزم بأوامر النبي صلى الله عليه وسلم فينفذ القرارات النبوية ثم يبحث عن الحكمة من القرار.

فكما ذكرنا في المبحث الأول فإن محاور سورة البقرة تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة (التوحيد والتقوى). وحول موقف الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل الخلافة في الأرض (طبيعة المنهج) كما ذكر سيد قطب في تفسيره، أو تدور حول الإنفاق كما ذكر البقاعي في تفسيره وبين أثر الإنفاق على الفرد والجماعة، على الحالة الاجتماعية للفقير وعلى الجهاد والقتال، حيث قد يكون الإنفاق بمال أو بالنفس. فما هو موقع قصة بقرة بني إسرائيل في هذه المحاور؟ وما الصلة الفكرية بين الموضوعات المختلفة لسورة البقرة التي وردت فيها مجموعة من القصص، كقصة إبراهيم مع النمرود، وقصة إبراهيم وبناء الكعبة مع إسماعيل، وقصة طالوت، وأساليب منافقي المدينة في إثارة الفتن والمؤامرات، وكيفية تعاونهم مع يهود يثرب وعقودهم المشبوهة معهم.

فإذا نظرنا إلى مقصد الإنفاق الذي اقترحه البقاعي رحمه الله وجدنا أن قصة البقرة تتحدث عن الإنفاق في قوله تعالى: ﴿فَدَبَّحُوا بِهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71]، حيث أحجم بنو إسرائيل عن شراء البقرة وذبحها بسبب ثمنها الباهظ وخشية الإنفاق ولولا الأمر النبوي من موسى عليه السلام لما اشتروا البقرة ولما ذبحوها! ولكن محور موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية يظهر الموقع الحقيقي لهذه القصة في السورة، فاليهود تابعوا سياسة آبائهم وأجدادهم

¹ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الأملي (ت 310 هـ). 2000م. جامع البيان في تأويل آي القرآن. تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط. 1. ج. 2. ص 189.

² مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261 هـ). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. الحديث رقم: 1337. ج. 2. ص 975.

في التعامل مع الأنبياء، فسئلوا النبي صلى الله عليه وسلم أسئلة كثيرة ليس لغرض العلم والتعلم وإنما في محاولة بإئسة منهم لإظهار عجزه أمامهم وأمام المنافقين ومشركي قريش، ولما جاءهم الجواب الشافي أعرضوا ولم يستجيبوا لنداء الإيمان توافقاً مع طباعهم المتمردة والكبر الموجود فيهم، فهم اقترحوا على وفد مشركي قريش سؤال النبي عن أهل الكهف وذي القرنين والروح فلما نزل الوحي الأمين بالجواب الشافي أعرضوا وازدادوا كفرة؛ قال الخطيب في تفسيره مبيناً الطباع المتوارثة لليهود والمتأصلة في علمائهم خاصة: "وهذا موقف آخر من مواقف العنت والعناد، من هؤلاء القوم مع الله، ومع آيات الله، حيث لا تزيدهم الآيات إلا كفرة، ولا يزيدهم النور إلا عمى".¹

فالمقصد القرآني من توزيع قصة البقرة في سورة البقرة يهدف إلى تحقيق الوحدة العضوية، وهو مقصد لا يفهم إلا بمتابعة مقاصد السور ككل، ومقاصد القصص الأخرى المنتشرة في السورة. وليس عبثاً أن كان اسم أطول سورة في القرآن الكريم مبيناً على قصة بقرة بني إسرائيل، فالحكم منها كثيرة، وأهمها محاربة عقلية افتعال المشاكل والأزمات، ومقاصدها على ما يراه دراز أربعة: 1. دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام. 2. دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في الدين الحق. 3. عرض شرائع الدين تفصيلاً. 4. ذكر الوازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم من مخالفتها. وسوى هذه المقاصد الأربعة هناك مقدمة في التعريف بشأن القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم. وخاتمة في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد.²

والنقاط التي عرضها دراز لا تعدو أن تكون ملخصاً جيداً لما استوعب الكلام فيه الشيخ رشيد رضا في المنار. ويقع المقصد الأول في خمس آيات (11-25)، تليها أربع عشرة آية (26-39) هي عود على بدء كما يسميها دراز لتناولها المطالب الثلاثة: التوحيد، الإيمان بالوحي، البعث. والتي هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية. ويقع المقصد الثاني في ثلاث وعشرين ومائة آية (40-162)، وفيه أربعة أقسام: تاريخ اليهود منذ بُعث فيهم موسى عليه السلام. أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية. أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام. حاضر المسلمين في وقت البعثة.

ويقع المقصد الثالث في خمس عشرة آية (163-177). وتتكون من ثلاث خطوات: تقرير وحدة الخالق المعبود. تقرير وحدة الأمر المطاع. فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة.

ومن الآيات البارزة في هذه السورة الشريفة: آية الكرسي (255)، آية التحدي (23)، تعليم آدم الأسماء كلها (31)، والآيات المتحدثة عن قصة البقرة (67-73)، الحديث عن السحر وملكي بابل (102)، الآية التي تتحدث عن نسخ الآيات (206)، دعاء إبراهيم (126)، الأمة الوسط (143)، إباحة الحرم للمضطر (173)،

1 الخطيب، عبد الكريم يونس (ت 1390 هـ). التفسير القرآني للقرآن. القاهرة: دار الفكر العربي. ج 1. ص 96.

2 دراز، محمد عبد الله. 1997م. الثبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن. تخرجه وتعليق عبد الحميد الدخاخي. الإسكندرية: دار المرابطين، ط 1. ص 204.

آية القصاص (179)، فريضة الصوم (185)، فريضة الحج (197)، القتال في الشهر الحرام (217)، انتصار طالوت (250)، لا إكراه في الدين (256)، تحريم الربا (275)، آية الدين (282)، دعاء خاتمة البقرة (286).

الخاتمة والمقترحات

القرآن الكريم في توزيعه لأحداث القصة الواحدة على مجموعة سورة لا يكرر الأحداث والمواقف نفسها، بل يضيف حدثاً جديداً في كل سورة جديدة، أو يذكر تفصيلاً صغيراً جديداً للحدث نفسه، أو يزيد في الأقوال والمجادلات، أو يضيف شخصية جديدة إلى الأحداث المذكورة فتبدو القصة وكأنها جديدة تماماً، وليست تكراراً مملاً للأحداث نفسها كما زعم المستشرقون وأتباعه.

المقصد القرآني الأول من توزيع القصة الواحدة على مجموعة من السور هو تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم كما ذكر علماء علوم القرآن، فطبيعة المواجهة مع قريش في الفترة المكية على وجه الخصوص وما تعرض له النبي الكريم وصحابته من أذى جسدي ونفسي أجبرت العشرات منهم على الهجرة إلى الحبشة، استدعت نزول جبريل بالوحي لتقوية إيمان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يجد السكينة والطمأنينة مع نزول جبريل حتى أنه طلب من جبريل عليه السلام الإكثار من القدوم.

والمقصد الثاني من توزيع القصة الواحدة على عدة سور يتعلق بالحكم المستخلصة من جزئيات القصة والمتفقة مع طبيعة الأحداث التاريخية التي شهدتها الصحابة الكرام ومعهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ويختلف هذا المقصد مع مقصد مواكبة الأحداث مع نزول القرآن منجماً على ثلاثة وعشرين عاماً.

إذا جمعنا كل الأجزاء المتعلقة بقصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم فذلك بحث في الوحدة الموضوعية، أما إذا نظرنا في موقع كل جزء من السورة التي ورد فيها وعلاقته ببقية أجزاء السورة فذلك من الوحدة العضوية التي تظهر السورة كالعنصر الواحد، وتبحث عن محور شامل يحتضن معظم الموضوعات الصغيرة في السورة.

مقاصد سورة البقرة على ما يراه دراز أربعة: 1. دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام. 2. دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في الدين الحق. 3. عرض شرائع الدين تفصيلاً. 4. ذكر الواعظ الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم من مخالفتها. وسوى هذه المقاصد الأربعة هناك مقدمة في التعريف بشأن القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم. وخاتمة في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد

المصادر والمراجع

- البخاري، محمد بن إسماعيل. 1422 هـ. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت 885هـ). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- الخطيب، عبد الكريم يونس (ت 1390 هـ). التفسير القرآني للقرآن. القاهرة: دار الفكر العربي.
- دراز، محمد عبد الله. 1997م. التنبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن. تخريج وتعليق عبد الحميد الدخاخي. الإسكندرية: دار المرابطين، ط1.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الأملّي (ت 310 هـ). 2000م. جامع البيان في تأويل آي القرآن. تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط1.
- طهماز، عبد الحميد محمود. 1993م. الإسلام لله تعالى في سورة البقرة. دمشق: دار القلم، ط1.
- قطب، سيّد. 1985م. في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق، ط11.
- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261هـ). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.